

كيف كان يدعى النهر الذي كنا نندفع نحو مصبه؟ لم أحفظه... ومن كان الرجل الذي اكتشفه فمنحه اسمه ومتى؟... كنت أتصوره والتيارات السريعة تجتازه، حاملة مياهاً طينية ممزوجة بدوامات مزوبعة تسبب على طول مجراها تشكّل الضباب والصقيع. لقد عرفت أنهاراً من هذا النوع في شبه جزيرة كولسك. وأصيغت إلى هديرها وتابعت بنظري مياهها التي لا تقل ثقلها وتقلباً وتموجاً عن لهب مخزن حطب. تسكنها أسماك نادرة ويحدث أحياناً للمرء أن تصدر عنه حركة تراجع وخوف هبيج حينما تنط فجأة، تحت قدميك، على ظهر السفينة، سمكة سلمون. وثمة حجارة باهرة الحسن ومجلوة بالثلوج والمياه، تؤزّر أنهار السهب تلك. وتغطيها طحالب جد طرية على صفحاتها الشمالية، فنلتمع وتسخن في أيام الصيف الجميلة. وإنها لمتعة أن يتمدد المرء عليها بعد أن ينزع عن ظهره حقيبته المبللة بالعرق إثر مسير طويل.

هنالك في الزورق حركة. يقول أحدهم، رافعاً صوته لتغطية ضجيج المحركات، إن عند مصب النهر كوخاً يعيش فيه، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، صياد وزوجته البالغة الجبال... يتباطأ المحرك. فأنهض منتصباً: إننا نلج مصب نهر بطيء وداكن.

إن الأنهار التي تصب في البحر الأبيض وحشية وقاحلة، ولكن المرء يكتشف أثر الانسان حتى على ضفاف أكثر الأنهار بعداً عن الحاضرة: رحي علف، قوارب جالحة، مخالب تثبيت للجليد ملقاة على الشط، أو أوتاد تحدد موضع موقف قارب، بقايا نار، صليب عتيق أو حتى «أيسبا» (منزل خشبي) خال ومهدم. أما هنا، فما من شيء يحد النظر. فالنهر مسطح فارغ يسري ما بين هضاب جرداء... أرسينا الزورق وعدنا